صور جديدة من الأدب العربي

بين المعري وداعي الدعاة

٣— الخير والشر

« تباركت يا رب السموات صنتها عليك في سوآتها لم تبارك ! »
« أبو العلاء »

أبو العلاء — كما قلت في مقدمة اللزوميات — « رجل سوداوي المزاج ، ممعن في السخط على الحياة ، بالغ في سخطه وبرمه مدى لا يشركه فيه الا القليل النادر من الفلاسفة المتشائمين » والمعري لا ينظر الى الحياة إلا بمنظار شديد السواد، فهو يراها طافحة بالشر ، مملوءة بالويلات والمصائب ، مُشْرَعة بالاحزان والمتاعب ، وهو إن قال :

« لعم ثمَّ جزء من الوف كثيرة من الخير ، والاجزاء بعد شرور »

لم يلبث أن يستكثر على الحياة ان يكون فيها جزء من الوف كثيرة من الخير، فيقول:

« لا أزعم الصفو مازجاً كدراً بل مزعمي أنَّ كله كدر »

وقد ملأ لزومياته بالسخط والتبرم بالحياة ، بعد أن بَرِم بها — في سقط الزند — في مناسبات شتى فقال :

« تعب كلها الحياة فما اعـ ـجب إلا من راغب في ازدياد»

وقال : « تدعو بطول العمر افواهنا لمن تناهى القلب في ودهِ
يَسُرُّ إن مُدّ بقاءٌ لهُ والشر كل الشر في مدهِ »

على أن هذه الفلتات التي تعثر بها في سقط الزند ، قد أصبحت من الدعائم التي بنيت عليها فلسفته في لزومياته فأصبح القارىء لا يكاد يظفر بصفحة واحدة فيها خالية من السخط والنقمة على ما يغمر العالم من شرور وآلام، واللزوميات كلها صاخبة صارخة بهذه المعاني حافلة بالتعبير عنها ، في سخرية هازئة مَرَّة ، وفي جد قاس مرة اخرى ، وفي ألم لاذع مرة ثالثة ، وفي يأس مميت في أكثر الاحايين : ألا تراه يقول :

دعا لي بالبقاء أخو وداد رويدك إنما تدعو عليَّا
وما كان البقاء لي اختياراً لو ان الامر موكول إليَّا

ويقول :

يسمّي « سروراً » جاهل متخرص ـ بفيه البرى ـ هل في الزمان سرور؟

الى آخر هذه الابيات التي امتلأت بها لزومياته كلها

وفي الحق ان المعري لو بعث رسولاً لدعا على قومه دعوة نوح — عليه السلام — فقال: « رب لا تذر على الارض من الكافرين ديّاراً ، انك — ان تذرهم — يُضلّوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا »

وما لنا نتخيل ذلك ، وقد دعا على الناس هذه الدعوة نفسها ، وأربى عليها إرباء فقال من قصيدة صارخة عنيفة :

هل ينظرون سوى الطوفان يهلكهم — كما يقال — أو الطير الأبابيل[1]

والمعري يمقت المرأة لأنها اداة النسل ، وهو يرى في النسل شرّاً مستطيراً ، ويرى جناية الآباء على الأبناء ، ولو نال الابناء أقصى مناصب الرفعة :

على الوُلْدِ يجني والدٌ ولَوَ انّهم ولاة على أمصارهم خطباء

ويقرر انهُ يود أن تخلو الدنيا من ساكنيها ليخلصوا من شرورها ، ويقول إن الناس لو رأوا رأيه :

« لعطلوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنَوا ، واستراحوا من رزاياها »

وهو يرى الشر متأصلاً في النفس والخير لا يأتي إلا عرضاً ، فيقول :

« ألم تر ان الخير يكسبه الحجى طريفاً وأن الشر في الطبع مُتْلِد »

الى آخر هذه الأبيات التي يضيق المقام عن ذكر القليل منها بله الكثير

والمعري يمقت الظلم السائد في العالم أشد المقت ، ويتألم من فتك القوي بالضعيف ، ويندد بذلك في كل مناسبة ، وهو يقرر — في صراحة تامة لا لبس فيها ولا ابهام — أن الطبائع كلها منطوية على هذا الجور ، مجبرة عليه ، وأن البازي — بطبعه — يفترس القطا ، لأن الله — سبحانهُ — قد اراد له ذلك :

---

(١) وفي هذه القصيدة يقول المعري :

مضى الزمان — ونفس المرء مولعة بالشر من قبل هابيل وقابيل

لو غربل الناس كيما يعدموا سقطاً لما تحصل شيء في الغرابيل

أو قيل للنار : « خصي من جنى » أكلت أجسادهم وأبت أكل السرابيل

الى أن يقول : سبحان من ألهم الاقوام كلهم أمراً يقود الى خبل وتخبيل

لحظ العيون وأهواء النفوس وإن داء الشفاه الى لثم وتقبيل

«ولو لم يرد جور البزاة على القطا   لكوّنها ما صاغها بمناسر[١]»

وهو يرى الظلم مركباً في طبيعة الضعيف والقوي على السواء

«كادت تساوي نفوس الناس كلهم   في الشر ما بين مَبُوزٍ وبازِ

ظلم الحمامة في الدنيا — وان حسبت   في الصالحات — كظلم الصقر والبازِ»

هذه هي وجهة الفلسفة العلائية في تفهم الخير والشر ، فانظر الى وجهة مناظره — داعي الدعاة — تراها على النقيض منها ، وتجد داعي الدعاة «الذي يتوكأ على عصا العقل» — على حد تعبيره — يحاول اقناع المعري بوجوب أكل اللحم فيقرر له نظريات يدين المعري بنقضها كل المناقضة ، فيقول داعي الدعاة : « أليس النبات موضوعاً للحيوان الذي يمتاز منهُ — بوجوده وجوده واستقامته في حفظ انواعه وولادة مواليده ؟ وانما يستولي الحيوان على النبات بالقوة الحساسة التي ترجح بها على النبات من حيث كونه نامياً فقط وليس بحساس ؛ وعلى ذلك فالقوة الانسانية مستولية على الحيوان استيلاء الحيوان على النبات لرجحانها عليه بالنطق والعقل » وما ينبغي ان يكون أرأف بها من خالقها » ويرى داعي الدعاة أن الله يريد ذلك — كما يدل عليه وقوع المشاهدة لجنس السباع وجوارح الطير التي خلقها الله — سبحانه — على صيغة لا تصلح الا لنتش اللحم وفسخه وتمزيق الحيوان وأكله، واذا كان هذا الشكل قائم العين في الفطرة، كان جنس البشر وسيع العذر في أكل اللحوم»

ويقول داعي الدعاة : « وإما انه (المعري) يجد سفك دماء الحيوان خارجاً من اوضاع الحكمة وذلك اعتراض منهُ على الخالق الذي هو أعرف بوجوه الحكمة »

***

فأنت ترى الهاوية السحيقة التي تفصل بين النظريتين ، وترى من ذلك ان المعري لم يكن له بد من تقرير نظريته مع ما في ذلك من الخطر الجسيم الذي يتهدده حين يقررها، وقد افاض المعري في اقناع مناظره ان الحيوان كله احساس يتفجع به الالم، ثم انتقل الى المشكلة الخطيرة التي عرض لها داعي الدعاة في رسائله فقال أبو العلاء :

«إذا تبينا القضية المركبة من مسند ومسند إليه، ولها واسطتان احداها نافية والأخرى

(١) وفي ذلك يقول المعري:

ولو لم يقدر خالق الليث فرسه   لطعمه لم يعطه الناب والظفرا

ومما يجدر ذكره في هذا المقام بهذه المناسبة قول المعري :

سبحان من ألهم الاجناس كلهم   أمراً يقود الى خبل وتخبيل

وقوله :   والله يحمد كلما طال المدى   طمت الشرور وقلت الاخيار

الى آخر هذا الحد الساخر الذي يذكرنا بقول القائل :

لك الحمد أما ما نحب فلا نرى   ونظر ما لا نشتهي فلك الحمد !

استثنائية — فقلنا : « الله لا يفعل إلا خيراً » أفهذه القضية كاذبة أم صادقة ؟ فان قيل إنها صادقة رأينا الشرور غوالب ، فعلمنا ان ذلك سر خفي » . ثم ذكر المعري طائفة من الشرور التي لا يستطيع مناظره أن يجحد انها شرور ، كموت أبراهيم ولد النبي (ص) وقتل حمزة عمه وقتل الحسين وسم الحسن وقتلى أُحُد، وكيف فجع أبو ذؤيب في بنيه السبعة الذين شربوا من لبن قد شربت منه حية ثم قاءت فيه فهلكوا في يوم واحد الخ»

وسأل مناظره : « أفهذه الاشياء خيرات أم شرور ؟ »

فان قال قائل : « هي محزونة منكرة » فقد أبطل القضية التي هي متقدمة ، وان قال : « القضية المذكورة لا تصح ، فالسائل بشيء الادب يلح، وان قال : «القضية ممكنة» فقد لزمه أن يقول : « ان الله — سبحانه — يفعل الخير والشر » فان أبى ذلك رجع الى ما يقوله المجوس من أن للعالم خالقين أحدهما فاعل الخير والآخر فاعل الشر، ومعاذ الله أن تقول هذه المقالة

ثم قال المعري : وللسائل ان يقول « ان كان الخير لا يريد ربنا سواه ، فالشر لا يخلو من أحد امرين : اما ان يكون قد علم به ، واما ان يكون غير عالم به — واعوذ بالله من هذه المقالة — فإن كان عالماً به فلا يخلو من احد أمرين : اما ان يكون مريداً له او غير مريد ، فان كان مريداً له فكأنه هو الفاعل ، كما ان القائل يقول : « قطع الامير يد السارق » — فالأمير قطعها الا انه لم يل ذلك بنفسه — وان كان غير مريد له فقد جاز عليه ما لا يجوز على أمير له في الارض نظراء كثير ، لانه اذا فُعل — في ولايته — شيء لا يرضاه نكره اشد نكير وأمر بزواله »

هذه هي العقد التي قد جهد في حلها المتكلمون — من أهل الشرائع — فلم يجدوا لها انحلالاً ، وأصبح مقامهم ضلالاً

ولما أحس المعري انه قد ضيق على مناظره الخناق، أخذ يناقشه في مسألة «الرأفة» التي بنى عليها نظريته ، فقال المعري بجرأة عجيبة :

ويقول القائل : قد ذكرت الانبياء ان الباري — جلت قدرته — رءوف رحيم، ولشاهد ماهو — على غير ذلك — دليل ، لانه لو رأف ببني البشر لوجب ان يرأف بغيرهم من اصناف الحيوان الذي يجد الالم بأدنى شيء ، ولمَ يخصّ الانس بذلك وهم الذين يجنون الكبائر ويقدمون على ايان الذنوب ؟ وقد رأينا الجيشين المنتسب كل واحد منهما الى الشرع المفرد ، وكلاهما في مدد ويقتل بينهما آلاف ، أفهذا محسوب من أي الوجهين ؟ وإذا قيل ان الباري رءوف رحيم فلِمَ يسلط الاسد على افتراس نسمة المسية ؟ ولِمَ مات

بلدغ الحيات جماعة مشهورة ، وما الطير الراضية بلقط الحبة ، الراجعة بها الى الأحبة ، فتُسلّط عليها باز أوصقر فتمها من القفر ؟ وإن القطاة لتدع فراخها ظماء وتبكر لترد ماء فيصادفها أجدل فينال الظفر بقوته ويهلك افراخها أُواماً

وقال بعض المُلحِدة في الآية : «وانهُ أهلك عاداً الاولى ، وثمود فما أبقى ، وقوم نوح من قبل ، إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ما غشّى» ، إن كان الباري — جلت قدرته — خلقهم وهو يعلم أنهم يجرمون ، يحرمون التوبة ولا يرحمون ، فكان ينبغي أن لا يخلقهم ، لأن خلقهم أداهم إلى العذاب والتجرع من الصاب ، وإن كان لا يعلم بما يصيرون اليه فهو كغيره من الفاعلين ، وقد يربي الرجل ولداً فيكون عاقاً ، أو علك عبداً فيخرج معانداً مُشاقاً ، ومعاذ الله ان نقول ذلك ؟»

وقد لخص المعري في هذه السطور القليلة فلسفتهُ المبعثرة في أشتات كتبه — واللزوميات خاصة — وابان بصريح العبارة عما يعتقده اعتقاداً جازماً — وان حاول أن ينسب هذه الآراء الى غيره ويقنع داعي الدعاة بانهُ راوية لا أكثر ولا اقل ، فقد ألفنا منه هذا الأسلوب في رسالة الغفران واللزوميات وغيرهما من كتبه

على أن داعي الدعاة أدرك غرض المعري إدراكاً صحيحاً ، وبعث اليه يقول : « أهذه هي أنباء الامور الصحائح » التي يهدي بها من استهدى ؟ وهل زاد السقيم بدوائه هذا إلا سقماً والأعمى الأصم — في دينه وعقله — الا عمى وصماً ؟ »

ويقول : « وأما ما تبع هذا الفصل من ذكر فجعة رسول الله (ص) بابراهيم ولده عليه السلام — وذكر سم الحسن وقتل الحسين الخ الجاري كله على سياقة واحدة والاستخبار عن كون ذلك خيراً او شراً ، فهو داخل في مضمار التقاسيم المذكورة التي عددتها وتركتها في غواشي ظلماتها ، فقد سبق القول إنه ماحل في السؤال الاول عقالاً بل زاد بهذه الاسئلة تيهاً وضلالاً . وأما قوله في ان اللحوم لا يوصل اليها الا بايلام الحيوان الخ ، فقد سبق القول بأنه لا يكون ارأف بها من خالقها ، فليس يخلو من كونه عادلاً او جائراً فان كان عادلاً فان — سبحانه — يقبض أرواح الآكل والمأكول جميعاً ، وذلك مسلم له وان كان جائراً لم ينبغ أن نرجع على خالقنا بعدلنا وجوره

وأما قوله : « وللسائل ان يقول ان كان الخير هو الذي لا يريد ربنا سواه الخ » فأقول في الجواب : قيل ان انساناً ضاع له مصحف فقيل له : « اقرأ والشمس وضحاها فإنك تجده» فقال : «وهذه السورة ايضاً فيه » فكذلك اقول : « إن هذا ايضاً من ذاك ، وجميه ظلمات فأين النور ؟ وإنما قصدناه للنور ، لنعرف أنباء الامور الصحائح ! »

للكلام بقية كامل كيلاني